

على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بنلم فزاد افرام البستاني

ولقد يكون من الالفاظ ضعافا الى سبيل آبانهم
من حيث لا يعلمون

الفصل التاسع

مصاب جديد (تابع)

اماً فرحات فكان اشد حيرة تجاه موقف ابن مولاه ، يفتش عن تعبير
يقطع به ذاك السكوت فلا يجد ، ويبحث عن كلمة يخفف بها تلك اللوعة
فلا يتوفّق . بهمّ بان يجدته عن الانتصارات الباهرة في المارك الاخيرة فيترجع
قائلاً وما نفع تلك الانتصارات بعد ان قتل الامير ججاه ؟ ويجرب ان يتكلّم
عن بدور وتجملدها فينتبه الى ان ذاك الموضوع يجزى الى التفكير بحالة الست
سعدى ومرضها المقلق ؟ ويوشك ان يتبسط في اخبار دير القصر وما صارت اليه
بعد رجوع الامير ثم يهاب ان يفتح جرحاً بلياً في قلب غانم اذا ما قرب
الموضوع من قصر الشربين .

وما زال الاثنان في تلك الحالة من الجود والصمت ، يهاب فرحات ان
يقول ما يحزن ابن مولاه ، ويهاب هذا ان يأل فرحات فيسع ما يضاعف
الآمد ؟ حتى طرق الباب فجأة ، فاختلج غانم وقام لفتحه ، واذا به يرى احد
اغوات السراي . فلم عليه بكل لطف وقال :

- مولانا اليشا بحاجة اليك !

- سمّاً وطاعة ! انتظرنى ربما البس عباتى واسير معك !

ثم اشار الى مقعد فجلس عليه الآغا . وتحول نحو صندوقه فاخرج عباءة
بيضاء مزركشة ، وكوفية حريرية ، وغطالا مذهبا . ثم تناول خبز راتنة رقيقة ،
واقبل نحو الباب بعد ان قال لفرحات بلهجة مطشنة .

- لا شك ان سعادة الباشا يطلبني ليكلمني عن الامير ، ويهتني بانتصاره .
فالبث هنا حتى اعود ، فتحمل الى الامير تهاى الباشا واواسره الاخيرة .
ثم التفت الى الآغا ، وقال :

- هلم بنا كي لا نطيل انتظار سعادة الباشا .

فخرجوا ووجه غانم يطفح بشراً ، وخطواته تحمله سروراً ، حتى كان من
ينظره لا يشك في انه اسمد اهل الارض ، وابعدهم عن الموسم ا
قدمل فرحات لهذا الانقلاب السريع ، وكبر ابن مولاة في عينيه ، فاخذ
يعجب بسعة صدره ، ورباطة جأشه ، وصبه على احتمال الرزايا ، ويقدر له
مستقبلاً باهراً في عالم السياسة والادارة ، راجياً ان يخلف جده في رئاسة
الحزب ، ويكون من ادنى مقرتي الامير بشير :

* * *

اذن الجزار لغانم بالدخول فتخطى صفوف المساكين يقدم ثابتة ، ونظر
شامخ ، حتى بلغ المجلس ، فاستقبله الباشا باشاً ، واثار اليه متطفاً فجلس .
ثم اقبل عليه مبتسماً وقال :

- لقد سرورنا كل السرور بفوز ولدنا الامير بشير ! وهذا ما كنا نعدره
له لما نعرفه من حسن ادارته ، وحزمه وتعوده تذليل العقبات ، والانتصار على
الصعوبات . وانا نكلفك بان تبلمه تهايتنا .

فحنى غانم رأسه . ثم تقدم من الجزار ، فقبل يده ، وقال :

- الشكر لكم يا مولاي على كل حال . وما الامير بشير الا فرد من
جنودكم المظفرة . نال النصر بمساعدتكم ، وفتح بلاد العدو باسمكم الكريم .
وكيف لا ينتصر ، وخاطركم مشروح عليه ، وكيف لا ينتخذل الاعدا .
وغضبكم حال عليهم .

فعلت شفقي الجزار ابتسامة القبضة والهناء ، واثار على غانم بالعودة الى

مركزه ، وتابع :

- وبما سرّني ايضاً انه عرف حق الجيش الذي ارسلته لمساعدته . فلم ياطل بتقديم «العلايف» المقررة للقواد والجنود ، واعطاهم فوق اللازم فكانوا سرورين منه غاية السرور . وقد ارسل يصدني بتقديم قسم من الميري في اقرب وقت .

- كلّ هذا يدنّكم يا مولاي على مبلغ امانة الاميد بشير لكم ، وتعلّقه بشخصكم الكريم !

- لم يكن عندنا ادنى شك بهذا الامر . واما انت فنصيدك ان شاء الله ، الى بلدك قريباً ، محمّوقاً بمنائتنا ، كما كنت دائماً في هذا السراي . أليس كذلك ؟ قل : هل تضجّرت من امر ما ؟ هل نالك احد باذى ؟ هل عاكس احد ارادتك ؟ لا علم لي بشي . من ذلك ! قل ا وان يكن نالك مكروه اثنا . اقامتك في قصري ، فلا يكتك ان تلومني لانك لم ترفع اليّ شكواك ! - لا يا مولاي ! فليس ما اشكو منه . بل بالعكس فاني كنت ولا ازال مشرّولاً بمنائتكم السامية ، محمّوقاً بنظركم العالي . وليس لي ما اتناه سوى ان اقضي العمر مرهوقاً بعطفكم سائراً في طاعتكم ، قياً حيث شامت ارادتكم المطاعة .

فهزّ الجزّار رأسه موافقاً ، ولها بلحيته قليلاً ، وقال :

- اننا سنذكر دائماً هذه الطاعة ، ولا نضيع فرصة لاسعادك . فنسمح لك منذ اليوم ان تقيم خارج القلعة . في الجانح الايمن من سراي مصطفي آغا الذي سيوكل بخدمتك ثلاثة من خصيانه يقومون بكل ما تريده من المرافق والحوائج .

ثم التفت الى مصطفي آغا فحنى هذا رأسه علامة الخضوع وقال :

- الامر لمولاي ا

وادار الجزّار رأسه الى ناحية كتبه عبداً آغا وتابع ، موجهاً الكلام الى

غانم :

- وسيكسب لك عبداً آغا وثيقة بامضائنا تحوّلك الحق المطلق في الذهاب

حيث شئت ضمن حدود المدينة . فتدخل المحلّات التي يمنّ على بالك ان

تدخلها ، وتجول في الاسواق التي ترغب الجولان فيها ، وتطوف الحانات التي تحب الطراف بها ، فتحدث من تشاء من تجار الافرنج والعرب ، ولا مانع يملك ، ولا رقيب عليك . ثم انت حر في منزلك ، لا احد يسألك عما تصنع فيه ، ولا احد يدخل عليك الا باذنك .

فكتب عبدالله اغا الوثيقة بكل ما تقدم . فوقع عليها الجزار ، ثم ناولها لغانم . فاخذها هذا واقفاً ، وانحنى لقبول يد الجزار شاكراً . ثم استأذنه بالذهاب ، فاذن له ، وارسل معه مصطفى آغا الخدم الثلاثة ينقلون متاعه من غرفته الصغيرة في القلعة الى منزله الجديد .

* * *

كان فرحات يتطلع من نافذة غرفة غانم على الطريق المزدبي الى مجلس الجزار ، متوقفاً عودة مولاه بين الآونة والاخرى . فبصر به راجعاً ووراه رجال ثلاثة ، فظن شراً واخذ يفكر فيما عسى تكون عاقبة الامر ، مستعيداً في مخيلته ما قد يكون هييج غضب الجزار على غانم ، مستتبجاً اسوأ النتائج . حتى وصل غانم ، فحياه فرحات مضطرباً و اشار بطرفه مستهنماً عن مقصد هؤلاء الرجال . فابتم وقال :

- هؤلاء رجالي ! اتوا ينقلون امتعتي الى المنزل الجديد . فهل بنا نتفقد . وبعد ان اشار الى اثنين من الحصيان بنقل الامتعة شيئاً فشيئاً . سار وراه الثالث الى سراي مصطفى آغا ، وفرحات يرافقه ولم تنجل له الحقيقة بعد . فاخذ غانم يشرح له ما كان من سرور الجزار بانتصار الامير بشير ، وخصوصاً بتوقع قبض اموال الميري في القريب العاجل ، ويصف له كيف استقبله بالترحاب ، وكيف انعم عليه بالمتزل الجديد وبالحرية المطلقة بان يصنع كل ما يريد ويذهب حيث يشاء ضمن حدود المدينة .

فصر فرحات لسرور مولاه ، ورجا ان تكون هذه الحرية دافعة به الى التأسى والسلوان .

وبعد ان تم نقل الامتعة ، ورتبت . جلس الاثنان تناولوا الطعام معاً . ثم قام غانم فانشأ تحميراً للامير بشير يمجده بكل ما حدث . وتحميراً لبدور

يطمئنها الى حالته ، ويجربها بما ناله من الحرية ، داعياً اياها الى الصبر ، والتسليم في كل شيء . ، لمشيئته تعالى .

وناول التحريرين فرحات ، فحفظهما في عبه ، الى ان كان السحر فهب من نوميه ، وشد طواقاته ، ولف زواذته بمنديل ربطه الى ظهره ، ثم تناول عصاه الضخمة ، وودّع مولاه على ان يعود في الاسبوع القادم ، ان شاء الله .

الفصل العاشر

على غير معيار

تغير منزل غانم ، فتغير مقامه في نظر موظفي بلاط عكا . فن رجل غريب أخذ رهينة ، لا تأثير له ولا قيمة ، يعيش منفرداً في غرفة حديدة من مؤخر القلعة ، انتقل بسرعة غريبة الى صديق محالف يُقيم في جناح مهم من سراي كبير ، يجبه الجزار ويدعوه الى مجلسه ، فيقرّبه منه ، ويتفقد احواله . هذا ما كان يفكر به رجال البلاط اذ كان يمر غانم امامهم ، فينحنون لسيده مسلمين ، بعد ان كانوا لا يأبهون له اذا حيّاهم . هو الدهر يدور ويرفع من يشاء ويضع من يشاء ، وقد لا يكون لهولاء . ولا لأولئك ارادة في ما يُعقد عليهم من النعم او في ما يتزله بهم من النوائب . ولم يكن سبب دورة الدهر هذه التي رقت غانم الى تلك الدرجة سوى حرص الجزار ونهمه الى المال ، وما ارسله اليه الامير بشير من الوعود الخلابية .

اماً غانم نفسه فلم يكن ليشر بتغير حالته ، ولا ليتبه لجواهر المسلمين عليه حال مروره في ساحات القلعة . ليس عن صلف او استخفاف ، بل لقرط ما كان يشغل فكره من احوال الوطن ومن فيه .

لقد سُرّ دون شك بتغيير مقرّه ، اذ استبدل بتلك الغرفة الحديدة ، منزلاً فخماً ، واصبح له من يقضي حاجاته ويقوم بخدمته ، وصار يمكنه الذهاب حيث شاء ، دون رقيب يحدّجه ببصره ، ولا حارس يمنعه الدخول الى المحل

الفلاحي . لقد سرّاً أيضاً بما رافق هذا التمييز من اغترار الموظفين بقدره ، فكان يجب بصغر عقولهم ، ويتفكك بما يبدونه امامه من مظاهر الاحترام والاجلال . كل ذلك لأنهم سمعوا الجزار يخاطبه بركة و لطف ، وهم لم يتعودوا منه إلا الجفاء والغلظة ؛ ورأوه يهتم به ، وهم لم يعرفوا منه إلا الاستخفاف وعدم المبالاة .

على ان هذا السرور لم يكن نيملك على غانم شعوره ، بل لم يكن ليعزبه عن مصائبه الماضية ولا عما يحشاها من المستقبل القامض . فكان في منزله الجديد ، هو في غرفته القديمة ، لا يرخي الليل سدوله حتى يرخي المنان لمراته فيجمع بين ظلمة الدجى ، وظلمة الدموع ، وظلمة الافكار السوداء . تتأب مخته . كان يبكي على أمه التي لم يعرفها ، وعلى ابيه غانم الذي لا يتخيله ، وعلى جدّه الشيخ قمدان الذي لم يمكنه ان يعض عينيه ، وعلى عمه المير جهجاه الذي لم يودعه . ويبكي أيضاً على الست سعدى في حياتها لئامه من رؤيتها . ويبكي على بدور التي طالما انعمت آماله الميتة ، ونفخت في مستقبله الاسود روح حياة ورجاء . . . ثم يبكي على نفسه وحيداً في بلاد غريبة .

كثيراً ما كان يقضي ساعات طويلة من الليل على نافذة غرفته يروح ابصاره في السماء الصافية الى البحر الواسع ، فيرى النجوم تدرج في قبتها سرقصة خيالاتها فوق الموج المتأبل ، فيناجي ارواح اغزائه ، حتى يجالها هائمة في الفضاء الفسيح ، مشتمة بالانوار العلوية ترقبه من خروق الكواكب ، فتسد خطاه في حياته وتبسم له في ماتيه ، فيتشجع ، ويسكن ، وربما تهوي النجوم واحدة واحدة وراء الافق البعيد ، فتنور معها آماله واحداً واحداً في بحر اليأس المضطرب .

وكان ، اذا اصبح ، وخاف ان يكتشف القرباء نجواه الليلية في عينيه الذابلتين ، ووجهه الذاري ، ونظره التائه ، تجلّد وغسل وجهه ، وخرج متكلماً الطمانينة جائلاً في انحاء المدينة ، عله يروح النفس من بعض ما يلهم بها . فكان يهيم من قيساريات الحرير الى اسواق المواسم ، الى خانات الافرنج ،

يتوقف عند كل ما يلفت نظره ، ويمدّت كل من يراه غريباً مثله حتى اصبح له معارف عديدون بين الافرنج يتنظرون مروره كل يوم ، فيكرمون وفادته ، ويمحاذثونه بعريتهم الضيقة ، ولتظلم المفكّه . فاطمأن الى صداقتهم ، وعرفوا انه مسيحي لبناني ، فكانوا كثيراً ما يكلمونه عن دينه الذي هو دينهم ، وعن وطنه الذي يحبونه . فيفعل كلامهم في قلبه ، ويضع بلسماً لطيفاً على جراحه المتعدّدة ، فيعيد الكرة ويميدون بالبسم ، حتى تمكنت الصداقة بين الفريقين واصبحت زيارته لحان الافرنج من الواجبات اليومية .

وكان الجزّار ، اثناء ذلك ، لا يفتأ يدعوه الى ديوانه ، فيكثر له من ادلة الاكرام ، ويعيد على ماسمه كلمات عذبة تدلّ على رضاه عن اعمال الامير بشير ، وعلى عطفه على بلاده واهتمامه بتقدّمها وفلاحها . فكان غانم يشكره ويدعو له بطول البقاء ودوام الفرّ ، ثم يعجب بنفسه من تأثير المال في هذا الطاغية وهو لم يقبض بمد ، فكيف به اذا قبضه !

أمّا مصطفى آغا صاحب السراي ، فكان غانم ينفر منه في اول الامر لغير ما سبب ، سوى انه راعه ظاهره ، فهابه . وفعلماً كان ظاهره ممّا لا يدفع الى الطأنينة . قامّة فوق الربة قليلاً ، وجسمٌ مضطرب الحدود لا يكاد يميز الناظر طولَه من عرضه ، بدا منه بطنٌ كبيرٌ متّرهل يملوه صدر ضخم ، وكفّان غارتان ، يتدلى منها ذراعان مفرطاً الطول ، ينتهيان براحتين مبسوطتين واصابعٍ مربّعة الاطراف لا تدلّ على شيء . من دقّة الحسّ او لطف الذوق . أمّا الراس فكان مربّباً ضخماً ، ضاق جبينه ، وتقلطح مؤخره ، وتباعدت عيناه السوداوان الصغيرتان ، يفصل بينهما انفٌ ضخمٌ طويل الارنية ، ويجتميم عليها حاجبان كثيفان ، يكادان يتصلان بالشاربين وقد استطلاا وتشتت طرفاهما فملقا باطراف حلية كثة تركت للطبيعة تأخذ منها ما تشاء وتدع ما تشاء . وقد انفرجت عن ثم كبير وشفتين سيكّين تدلّت سفلاهما مقلوبةً قليلاً ، وتقلصت العليا عن اسنان كبيرة .

كل ذلك لم يكن يدفع الى الطأنينة ، فهابه غانم حتى الحذر . ولكن ما هو ان حادثه قليلاً حتى عرف ان وراء ذلك القناع الشيع ، قلباً طيباً ، ولطفاً

فطرياً ، وظرفاً جميلاً ، وحسن معايشة جديرة بالاعتبار . وهكذا كثيراً ما يكذب الباطن تأثير الظاهر ، وكثيراً ما لا يكون الوجه مرآة النفس . ولم يعض القليل حتى اصبح مصطفى آغا من اخلص اصدقاء غانم مجتسمان المرآت في النهار ، ويقضيان الليالي معاً . فيأخذ الاغا يسرد النكات الطريفة ، والنوادير المفككة ، والحكايات اللطيفة بما حدث له او لاصدقائه او للجزائر ، وغايته ان يبلي غانماً وينتبه بعض همومه . فقدما غانم يأنس الى معايشة صديقه الجديد ويتفكه باحاديثه اذ كان يمثل القصة التي يرويها بصوته ورأسه وعينه ، ويديه ، وبطنه ، وكل جسده . فيتركها اثرأ حياً لا ينساها من يسمها المرءة الواحدة ، ولا يعل من ساعها مرآت .

واحب مصطفى اغا غانماً حياً ابويأ ، خصوصاً بعد ان عرف ما ألم به من الرزايا ، فلم يكن يتركه وحده الا في الليل ، وبعد ان يتأكد بانه تام دون ان يتسلس للهواجس المؤلمة . وكان يسهر على كل احتياجاته ، فلا يشعر غانم بالحاجة الى امر ما حتى يراه في غرفته . وكان كثيراً ما يدعوه الى تناول الطعام على مائدته فيدخله بيته ، ويستقبله بكل بساطة وارتياح .

* * *

مر زمن على غانم وهو في تلك الحال من دعة العيش واساليب الراحة الثامنة ، لا يقلق خاطره سوى انتظار فرحات وما يحمله من الاخبار ، ولا يكدر صفاء حياته سوى تلك الهواجس التي لم تكن تفارقه على الرغم من مظاهر الكون والطمانينة ، هواجس سوداء . مزعجة كانت تحوم به حول قصر بعدنان فتشيل له الرزايا المختلفة على مختلف انواعها حتى كان يجثى من متابعتها ، فيطردها . . . ولكن الى حين .

وكانت تلك الهواجس ، كلما طال غياب فرحات ، تجتست وتجهمرت واكفهرت فازعجت المسكين في نهاره ، واقصت مضجعه في ليله . فلبث حائراً تائهاً ينتظر ثرة رجوع خادمه الامين باي خبر كان . . . عله يتخلص من تلك الحالة القلقة التي لا تستقر على شيء ، وهي اشد تأثيراً من وقع المصيبة يعرفها الانسان ، فيضطرب لها مدة ثم يكن الى الحقيقة الواقعة ؛ وطوراً يجثى

من رجوعه مفاجئاً ذلك الموقف القلبي ، على تحققي مصيبة جديدة . على ان
الاقدار بيد الله يديرها كيف شاء .

بينما كان غانم ذات مساء مستنداً الى نافذته وقد فارقه مصطفى اغا ،
فاستسلم الى قنوطه ، حتى تاه بصره على تلك اليبداء المتأرجحة ، واصبح لا
يفكر في شيء . محدود ، دخل عليه احد خدمه ببطء . وقال بصوت خافت :

- على الباب فارسان يودان محادثتك يا سيدي ا

فاتنبه غانم من ذموره ، وفرك عينيه ، وقال :

- اتر المرجة ، وادخلهما .

ظهر فرحات على عتبة الباب يقود بيده الفارس الآخر . وكان غانم ينتظرهما
واقفاً وقد ضغط بيده اليسرى على قلبه ليخفف نبضاته . وما هو ان لمع نور
المرجة على وجبيها ، حتى ادرك المكين هول المصيبة الجديدة ، قدراحت
اعصابه وهوى على الديوان . فاسرع فرحات ونضح على جبينه الماء من ابريق
كان في النافذة ، بينما كانت بدور تفرك يديه . فافاق مذعوراً ، واجال نظراً
تأنها في الوجهن ، ثم اغمض جفنيه واجهش الثلاثة بالبكاء .

وكان احد الخدم ، لما رأى ذلك المشهد المحزن ، اسرع الى مصطفى آغا
وهو يعرفه صديق غانم الصدوق ، فاخبره بالامر . فقام هذا عن المشاء وهول
الى منزل غانم مستهتماً عما جرى . فتلقاها بجفن داعم ، ونفس لاهت ، وقال :
- مصيبة جديدة يا مصطفى آغا ! هذه خطيبي تحمل اليّ نعي امها امرأة
عني .

فحزن الاغا لهذا المشهد المؤثر ، وبعد ان رفع عينيه الى السماء قال :

- خفت عنك يا بني وكفكف دموعك ، فلامرءاً لحكمه تعالى ،
والمصائب محك الرجال ، فكن رجلاً . واعلم ان الرزايا متى توالت تولت ،
واقه يجرب خائفه فمضى تكون هذه المصيبة آخر تجاربي . ولا تنس آتاه
واتا اليه راجعون .

وبعد فترة سكوت تقدم مصطفى آغا من غانم وقال :

- لا شك بان البيدة تمبة ، وكذلك رفيقها ، وانت لم تتناول عشاءك بعد .

فارجو منك ان تتلطف وتكون معها في ضيافتي هذه الليلة .
ثم تناول يده فلم يمانع . وسار الجميع الى بيت مصطفى آغا فتناولوا ما
سد جوعهم وتحوّلوا الى ردهة السهرة ، فقال الآغا :
- اذا اذن الشيخ غانم ، فان النساء في الحرم ينتظرن السيدة فقيم معهن
قليلاً ، فيتمرنّ اليها ويسلّنها .

فشكروه غانم و اشار الى بدور فسارت الى ردهة النساء . فاستقبلنها بكل
الطف ، واقبلنّ يمزّينها بكل ما في قلوبهنّ من عواطف .
وعند الساعة الثالثة ، استأذن غانم من مضيغه بالانصراف فوقف هذا
ورافق ضيوفه حتى المنزل . ثم حيّاهم وكرّر التعمية والوصية ، وانقلب آسفاً
لا جرى .

من الصبح وصف مشهد الثلاثة ذاك الليل ، اذ كانت بدور تجرّ غانماً
تفاصيل وفاة أمها بصوت تقطعه الزفرات فيجاوبها هو بالشيخ ، ويكي
فرحات حامتاً . الى ان بلغ الجهد من الثلاثة ، فدخل كل الى غرفته ونام
نوماً ثقيلاً حتى الفجر .

عرف الجزّار ، في اليوم الثاني ، بعصية غانم وبقدوم خطيبته . فارسل
للحال كاتبه عبدالله آغا لتعميته ، واوفد احدى نساء حرمه مع جاريتها لتعمية
بدور . فشكر له غانم هذا التنازل .

وما لبث الخبر ان انتشر في البلاط وفي المدينة . وكان لغانم اصدقاء
كثيرون ، فاقبلوا يمزّونه ويحفّونه بجميع اساليب السلوان . وكثيراً ما كان
يأتي نساء المرتظفين ايضاً تستقبلهنّ بدور في حرم مصطفى آغا .

وكان امن اقبلوا التعمية بهض تجار الافرنج ، يتقدمهم راهب فرنسي كان
عرفه غانم في احدى قيساريات الحرير ، اسمه الاب توما . قدّم لغانم اخلص
عواطفه ، وعرض عليه ان يحتمل بقدّاس وجناز عن نفس الفقيدة يحضرها
جميع المسيحيين ، فشكر له غانم هذا الفضل . وعيننا لذلك يوم خميس الصمود

سنة ١٢٩٦ .

غضت الكنيسة في اليوم المذكور باصحاب غانم من الافرنج والوطنيين ، وكان في مقدمتهم عبدالله آغا نائباً عن الجزائر ومصطفى آغا . وكان غانم جانباً في الوسط على مر كع خشبي ، والى جانبه عن اليمين بدور وقد لبست حبرة سوداء ، وغتات وجهها يديها مفكرة بما صارت اليه من اليم ، والتغرب . امأ هو فلم يكن بإمكانه جمع افكاره اثناء الذبيحة الالهية ، بل كان يحوم بخياله حول دير القصر وبمذران يراجع في نفسه ما احاق به من البلايا في هذه المدة الاخيرة من حبسه في عكا ، الى وفاة جده مقهوراً ، الى مقتل المير جبهجاه ، الى وفاة الست سعدى حزناً على زوجها ، الى تبدد ارزاقه وارزاق بدور ، الى تضعف الحزب السياسي الذي طالما رجع الاحزاب اللبنانية جميعها .

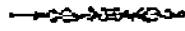
كل تلك الحواطر كانت تنشب في ذهنه وتضطرب متشابكة . ثم يلتفت فيرى الكاهن غارقاً في صلواته فيسلم لمشيئة الله . ولكن لا يلبث ان يحوّل وجهه الى جهة بدور ، فيراها وقد جلّ لها السواد ، آية الحزن وغنوان الاسبى ، فيعود بافكاره المضطربة الى حالتها وما سيخفي لها وله القدر المشؤوم .

وما زال على تلك الحالة من الاضطراب يبدأ بالصلاة فيشرد ففكره بعيداً ، وبهمّ بالتأمل في الذبيحة الالهية فلا تطارعه هواجسه ، حتى انتصف القداس ، ودار الكاهن ليقرا الانجيل بالعربية ، فوقف الجميع ، وارهقوا آذانهم ، واذا به يقرأ :

« الحق الحق اقول لكم ان من يسمع كلامي ويؤمن بىن أرسلني له الحياة الابدية ، ولا يصير الى دينونة . لكنه قد انتقل من الموت الى الحياة . الحق الحق اقول لكم انها تأتي ساعة ، وهي الآن حاضرة ، يسمع فيها الامرات صوت ابن الله والذين يسمعون ينجون . لأنه كما ان الأب له الحياة في ذاته ، كذلك أعطى الابن ان تكون له الحياة في ذاته . وأعطاه سلطاناً ان يُعْجِري الحكم بما انه ابن البشر . ولا تعجبوا من هذا لانها تأتي ساعة يُسمع فيها جميع من في القبور صوت ابن الله . فيخرج الذين عملوا الصالحات الى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة . »

وبعد الانجيل لفظ الاب توما عظة صغيرة ملوؤها عواطف التزمّة والاتكال

على الله ، حفظ منها غانم قول المسيح : « من آمن بي ، وان مات ، فسيحيا »
فتعزى بذلك عن حزنه الشديد اذ كان له ملء الثقة بقول السيد له المجد ،
وكان يعلم ان كل موته كانوا من اخلص المؤمنين ، واوفرهم غيرة على دينهم . . .
ثم التفت الى بدور فرأى على وجهها دلائل الطمأنينة والصدور ، فزادت تعزيت ،
ويارك اسم الله شاكراً له النعم التي يهبها على قدر المصائب .



الفصل الحادي عشر

عرس غريين

كالمر الاصيل العتي يروضه الفارس الجبار راحضاً اياه في الغلوات المقفرة ،
تحت اشعة الشمس المحرقة ، بين الغبار المتكاثف ، فيذلل جموحه ، ويخفف
من غلوائه ؛ فيرجع منهو كلاً لنبأ يجزر حوافره على الارض اللينة ، ويستقبل
نسيم المساء الرطب بمنخرين أدمتها السوم ، ولكنه لا يزال يلعب في عينيه
نور الحياء ، وفي رفته رأسه آثار الاصل الكريم .

كالنخلة الباسقة السحوق على حدود القفر المحرق ، تحمل عليها العواصف
قتلويها ، وتنقض عليها الامطار قبلها ، ويتصاعد حولها الغبار فيحجبها عن
ابصار الناظرين ؛ على انها لا تلبث ان تتخلص من تلك النوائب ، واذا بها
مهشمة الاطراف ، مشققة الاوراق ، ولكنها لا تزال شامخة الرأس على توالي
الخطوب .

هكذا ظهرت لغانم ابنة الاسراء ، وقد تراكمت عليها المصائب فأدمت
قلبا الحسّاس ولكنها لم تكدر عقلها المنير ، وقصمت ظهرها ولكنها لم تحن
رأسها ، وذهبت بما كان في حركاتها من ظرف لطيف ، ودلال جذاب ،
ولكنها ابدتها به خيرة ورزاقه وهمة . فكان غانم كلما فكّر بها ظهرت له
الفضيلة المرزاة ، والايمان الصابر المستلم ، والجمال الذي زاده الحزن وقاراً ،
والذكا الذي اكبه الاختبار تعقلاً واصالة رأي .
(لها بقية)